الماء في ثقافة الشعوب

أ.د. لبانة مشوِّح(*)

ارتبط الماء بالثقافة عبر التاريخ في علاقة جدلية؛ فكما أن الثقافة ماءُ الحياة، ونبع الإبداع، ونهر الحضارات الدافق، ينساب الماء إلى جذور الثقافة، يُخصِبُ تربتَها لغةً وصوراً ورموزاً وطقوساً وعادات.... ينفذ إلى عمق نسيج ثقافات الشعوب لتطرحه ندى على أوراق سِفرها، فيعبّر بشفافيته عن كل مكوّن من مكوناتها، ويزيد ببريقه وهج ألوانها، ويسبغ عليها من عذب مذاقه، ثم يتجمّع من كلّ فروعها ليصُبَّ سيلاً مدراراً في بحر الثقافة الإنسانية.

وتتجلى جدلية العلاقة بين الثقافة والماء في أوضح صورها في أساطير الشعوب وآدابها، وما انعكس منها على طقوسها وعاداتها وتقاليدها ، وفنونها بمختلف أشكالها ومدارسها.

وقد وجدنا لزاماً علينا في هذا السياق العودة بعيداً في تاريخ الفكر الإنساني حيث الماء عنصر أساسي في الثقافات القديمة، يشكّل إحدى ركائزها الغارقة في الرمزية فيما يعرف في علم تصنيف الأساطير بـ«الأسطورة العليا»، كقصةِ الخلق الأول و قصة الطوفان. فهو فيها العنصرُ الذي يُبدأ به

(*) ألقت عضو مجمع اللغة العربية بدمشق أ. د. لبانة مشوح هذه المحاضرة بتاريخ ٢٥/ ١١/ ٢٠١٥م.

الخلـق، ويصـل الأرض بالسـماء والإنسـان بخالقـه. فـي الأسـاطير الكنعانيـة توحّدت الأرض بالمطر في إله واحد هو الإله «بعـل» (أي السـيّد)، فكـان بعـلُ إلهَ المطر وسيدَ الحياة في آن معاً، لأن في الماء حياةَ الأرض وما عليها.

وكمـا أن المـاء مصـدر الحيـاة فهـو كـذلك منبـع الجمـال. (أفروديـت) الإغريقيةُ آلهةُ الحب والجمال ولدت من احتكاك أجزاءٍ من جسـد (أورانـوس) إلهِ السماء والحياة، بالماء عند سقوطه في البحر. وفي هذا رمزية مكثّفة للعلاقـة بين الماء عموماً (ماء السماء وماء البحار) والخِصب والحياة والجمال.

تُنبِئنا كتب تاريخ الفكر أن الفيلسوف اليوناني (طالس) (القرن السـادس ق.م) هو أول فيلسوف في التـاريخ عـدّ المـاء جـوهر كـل مـادة فـي الكـون وأساسَها الأول، ليضيف إليه أقرانُه مـن بعـده النـار والتـراب والهـواء. لكـن الحقيقة أن الفارسي (زرادشت)، الذي ترجِّح آخر الدراسات أنه عـاش بـين القرنين الخامس عشر والحادي عشر ق.م، أي قبل خمسة قرون على الأقـل من (طالس)، قد سـبقَ هـذا الأخيـر إلـى ذلـك، كمـا سـبقت شـعوب الهنـد وفارس الإغريقَ إلى تقديس الماء.

فالفرس القدماء قدّسوا الماء والنار والتراب والهواء، وهو مـا أخـذه عـنهم لاحقاً علماء الطبيعة الإغريـق. واعتقـد الفـرس أن الله بـدأ الخليقـة بالمـاء، ثـم أتبعها بالنار والنبات والسماء والأرض، ثم خلق الإنسان في اليوم الأخيـر. وقـد بلغ حد تقديسهم للماء أن بنوا له المعابد، وقدموا القرابين للينابيع.

لكنّ البابليين كانوا الأسبق إلى إمعان النظـر فـي أصـل الوجـود وربطـه بالماء. فبدايةُ الكون في معتقدهم كانت بحراً حلـواً، ثـم مـا لبثـت الآلهـة أن مزجت الماء الحلو بالماء المرّ فخلقـت منـه (إنشـار) سـيدَ العـالم العلـوي،

و(كِنشار) سيد العالم السفلي. ومن لقاء (إنشار) و(كنشار) ولِد (إيا) القوي المسلّح بكل المعارف.

وفي الأساطير المصرية، الماء أصل كل شيء. إذ إن (رع) إلهَ الشمس انبثق من أعماق البحار العميقة المحيطة بالعالم، والبشرَ خُلِقوا من دموع عينيه.

* * *

أدرك الإنسان القديم إذن أهمية الماء في وجوده، بل جعله أصلَ الكون والحياة والأشياء؛ لكن حدود معارفه الضيقة دفعته لأن يربط ظواهر الكون، التي تحييه حيناً وتدمّره أحياناً، بقدرة خارقة. فكان للماء في العقائد القديمة عددٌ من الآلهة، اختص بعضُها بالأنهار، وبعضُها الآخر بالصواعق، والبحار، والغيوم، والمطر....

والأرجح أن (بعل) هو أقدم آلهة المطر في الحضارات السامية القديمة وأهمها بالمطلق. وهو الإله المحارب عند الكنعانيين. لُقِّبَ بـ«راكب الغيوم وسائقِها»، إذا غضب أطلق عواصفه وصواعقه فدمّر وأحرق، وإذا رضي أرسل غيثاً رخيًّا يَسقي، فيحيي، ويغلُّ الغِلال. وبما أن (بعلَ) إلهُ المطر، فإنه يُخصب الأرض «البعل» بمائه؛ و«البعلُ» هي في الأصل الأرض المرتفعة التي لا يُصيبُها مطرٌ إلا مرَّةً واحدةً في السنة؛ والزرعُ الذي يسقى بماء السماء «زرعٌ بعل»، وعكسه «السقْيُ» و«المَسْقوي»؛ و«البعلة» هي الزوجة والعلاقة واضحة بين الماء والخِصب.

و(حُدُد) اسمٌ آخر لـ(بعل) إلهِ المطر والبرق والرعد. تَروي الأسطورة أنه خرج إلى البراري، فهاجمته الوحوش وجرّته إلى مستنقع وأغرقته – أي إن الماء في الأسطورة الكنعانية هو بداية الحياة ونهايتها – وظلّ (بعلُ) غريقاً سبع

سنوات احتُبِسَ الغيثُ خلالها، ويبست الكائنات وماتت الحياة. ولم ينقذها إلّا انتشالُه من المستنقع؛ فاخضرّت الأرض وانتشت الحياة عليها.

وفي رواية أخرى، أنَّ الإله (موت) انتصر على الإله (بعل)، فنزل بعل إلى عالم الأموات، وأخذ معه غيومه ورياحه الحاملةَ للغيث؛ فحلّ القحل والمحل، وشحُب وجهُ الأرض، وهزُلت الكائنات وباتت عُرضة للمجاعة. ويرجِّح الباحثون في علم الأساطير أن أسطورة موت بعل تشير إلى حدوث تبدّلات كبيرة قاسية في الأحوال الجوية في ذاك الزمان، طبعت الذاكرةَ الجمعية، وتُرجِمتْ على ما ترجمت عليه في الأساطير والطقوس المتوارثة. كما يرون في هذه الأسطورة رابطاً جليًّا بين المعتقدات والعادات السائدة في الحضارات القديمة والعادات والطقوس الشعبية التي ما زالت سائدة في مناطق عدة من هذا العالم خاصة في الشرق وإفريقية. إذ تروي الأسطورة الكنعانية أن الإله (إيل) كبير الآلهة بكى (بعل) بكاء مرًّا، بل بالغ في اللطم والنحيب، وأنه، بحسب ما ورد في «مغامرة العقل الأولى»: «خرّ واقعاً على الأرض، وأخذ يحثو التراب على رأسه ويمرّغ نفسه في الأديم». ولا عجب في ذلك، فاختفاء بعل يعني اختفاءَ الحياة. لذا هَرَع (إيل) إلى البراري للبحث عن (بعل) إلى جانب (عناة) أختِ (بعل). لكنه لم يجد له أثراً؛ وما أثره إلا الخُضرةَ والكلأَ وبهجة الحياة. تذكِّرنا مسيرة (إيل) و(عناة) بمسيرات الحَينة[1]، أو الحينة التي تجوب القرى في بلاد الشام فلا تجد إلا الجفاف والقحط.

كذلك تتولى (عناة) محاربة (موت) بعد أن رفضَ أن يعيد أخاها، «فتذروه بمِذراة، وتُحرِقُه بالنار وتطحنُه بين حجري رَحى، وتبذرُ بقاياه في

(١) الحَين: الهلاك والمحنة، والحائنة هي المصيبة.، أما «الحينة» فهي الوقت والحين.

الحقول ليلتهمها الطير». والصلة واضحة بين هذه الأسطورة وعادة النساءِ البدويات قديماً في تكويم التراب وغربلته وطحنه بالرَحى وعجنه، ثم إشعالِ النار فيه، كما يبين الباحث ممدوح مُفلح البَكر في كتابه «الروح الأخضر- احتفالاتُ الخِصب في العادات والمعتقد»(٢).

* * *

ومن الكنعانيين، يُبحِر بنا زورق الثقافة إلى شواطئ حضارات ما بين النهرين، فالبابليون سنّوا قوانين تنظم استعمال المياه وضمنوها شريعة حمورابي الخالدة. وكان لهم كما للآشوريين أناشيدُ وترانيمُ في تمجيد مياه دِجلة والفرات. وتجلّت عظمة مكانة الماء في الأساطير البابلية في أن كبير آلهة بابل هو سيّد الماء، أي السيد على السماء والأرض معاً.

وفي الألف الثالث قبل الميلاد، قدّس السومريون الماء، ومن قبلهم الأكاديون. والإله السومري (إيا) يقابل (بعل) عند الكنعانيين، وهو إله المياه العميقة، القادرُ على أن يهب الحياة والخضرة للبذور الميِّتة.

والماء بالنسبة للمندائيين الصابئة إحدى الوسائط التي تصلهم بالإله الواحد، وهو يمثل عندهم شكلاً من أشكال طهارة الروح والجسد؛ فهو أداة التعميد الأولى، وهو «الصورة المتخيّلة للتغير والحركة، وهو كامن بعدة أشكال وأماكن، ويمكنه إلغاء النجاسات وأخطاء المرء، كما أنه يغسل كلّ عالق لا يمتّ للروح بصلة. وهو مسيرة تحوّل إلى الجديد، ويمسح عن جبين الميت قلق الموت، ويحيي شجر الآس، ويعيد تجدّد الأعياد ويجعل خيال المندائي مطلقًا، كما أنه سيّد الطقوس»(٣).

(٢) انظر ممدوح مفلح البَكر ص٩٦.

(٣) انظر نعيم عبد المهلهل ص ١٨-٢٠.

عدّ الصابئة الماء العنصر الأكثر أزلية في دورة الحياة، نظروا إليه بكثير من الوقار الذي يصل حدّ التقديس، وجعلوه أداة من أدوات إكمال مراسيم التقرّب إلى الله، والاحتماء من كلّ خطيئة بصفاء الذهن ونقاء الروح وطهارة الجسد. ذكرت الدراسات الإنسانية بعض طقوس الماء عند الصابئة، كأن يشربوا الماء الصرف الصافي المقدّس ويستعملوه للرش والتطهير، ويعمِّدوا المرأة في النهر بعد الأسبوع الرابع من ولادتها في طقس يرمز إلى ارتباط المرأة رمز الخصوبة بالماء رمز الحياة.

ومن طبيعة الأمور وبديهياتها أن يقترن الماء بالخصوبة،كما سبق وأشرنا، وأن يتماهى في ثقافات الشعوب وأساطيرها بالمرأة، رمزِ الخصوبة ومنبتِ الحياة فها هي (ماريا)، ربّة النهر في الأساطير المكسيكية، تفيض على الرَوض حياة (...) وتُزهى بروحها البساتين؛ فتنحني لها الأزهار عِرفاناً بجميلها، وتوسلاً إليها أن تضمن لشعبها العزة والرخاء(٤).

أمّا السومريون فقد جعلوا للماء رَبَّةً هي «إلاهة اليَنْبوع» تبوّأت في حياتهم منزلة مرموقة، وأبدع لها الفنان السومري تمثالاً اكتُشِف في مدينة ماري وحُفِظ تحفة فنية في متاحف سورية الحضارة، أمانة في أعناق السوريين للأجيال القادمة، لا بل للبشرية جمعاء. جسّدوها امرأة ترتدي ثوباً طويلاً تزينهُ ثَنَيَاتٌ متموِّجة كتموج الماء، وتمسِك بيديها إناءً تتفجّر منه المياه، يرمزُ للحياة والخِصْب. قدَّس السومريون إلاهة الينبوع وطبعوا صورتها على أختامهم الأسطوانية.

* * *

(٤) أساطير المكسيك، ص١٠٠.

وكما أن الماء أصلُ الحياة، كذلك بالماء تُبعث الحياة بعد الموت؛ فها هي (إنانا)، ربّة المحبة والخصب في مدينة أوروك السومرية إحدى أوائل المراكز الحضارية في العالم وأكبر مدينة في العالم في الألف الرابع ق.م، هاهي تنزل إلى العالم السفلي لإنقاذ أخيها، ولا تعود للحياة إلّا عندما يرشّها أحدُ رسولي إله الحكمة بماء الحياة(٥).

وبالماء يعمّ الرخاء؛ فقد قام إنكي، إله الينبوع، بجلب الماء إلى بلاد ديلمون، وجعل مياه الآبار المرّة عذبةً حلوة المذاق، وروَّى الأرض المفلوحة بغزير مياهه، فنعِمت البلاد بالسلام والرخاء.

أمّا المصريون القدماء فمجّدوا نهر النيل كواحد من آلهتهم، معتقدين أنه نشأ من فيض دمع (إيزيس) و(أزوريس). أسموه الإله (حابي) وتمثلوه في صورة رجل امتلأت يداه بالخيرات تحفُّ به الأسماك والطيور والحيوانات والنباتات.

كما أنّ دموع (جلجامش) الباحثِ عن الخلود كانت قُرباناً لـ(أوتو) إله الشمس في أوروك ليحبس شياطين الأنواء في كهوف الجبال حتى يعبُرَ موكبُ الملك (جلجامش) إلى بلاد الأحياء الخالدين.

وأمّا اليونان، فقد جعلوا للبحر المتوسط والبحار عامةً إلهاً أسموه (بوسيدُن) Poseidon، يقيم في قصر ذهبي في أعماق البحر، ويتجوّل على عربة تجرّها الجياد، يمسِك بحربة مثلّثة الرؤوس يتحكّم بضربة منها في العواصف والأمواج، ويثير الزلازل والبراكين، ويشقُّ الصخور فيفجّر

(٥) انظر حكايا وأساطير من عالم الشرق القديم، ص٢٧.

الينابيع ويُنبِتُ الزرع. وقد شُيِّدت له المعابد على قِمم المرتفعات الساحلية، وقدِّمت له القرابين اتقاءً لشرّه واستدراراً لخيره[٦].

لكن تقديس الهندوس لنهر (الكنك) أو (الغانج) استمر منذ القدم وما زال حتى يومنا هذا. فجميع روافده مقدسة، ونقطة التقائه بالنهر الكبير (جمنا) جُعِلَ محجًّا يقصِده مئات آلاف المتعبِّدين، يغتسلون بمياهِه ليطهِّروا بها أنفسَهم ويغسلوا بها ذنوبهم. ولفرطِ تقديسهم لمياه هذا النهر، حسِبهم (الشهرستاني) «عبّاداً للماء» فقال في كتابه «المِللُ والنِحَل» واصفاً طقوس التطهّرِ عندهم: «وعُبّاد الماء طائفة من الهند يسمون الجهلكية، يزعمون أن الماء ملَكٌ ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة (....) فإذا أراد الرجل منهم عبادته، تجرّد وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسَطِه، فيقيمُ ساعتين أو أكثر ويأخذ من الرياحين فيقطعُها صغاراً ويلقي في الماء بعضَها بعد بعض وهو يسبّح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقّط على رأسه ووجهه وسائر جسده، ثم يسجد وينصرف».

وكما لدى الهندوس، نجد لدى الإغريق أيضاً طقوسَ عبادة تُستهلُّ بالاستحمام في مياه البحر تطهّراً. ويوحنا المعمدان عُمِّد في مياه الأردن، والمسيحيون يعمَّدون بالتغطيس في الماء أو بالسكب أو الرش،ويتطهّرون بالماء المقدّس قبل دخولهم بهو الكنيسة. والمسلم يتطهّر بسكب الماء، ويتوضّأ به تهيُّؤاً للصلاة.

* * *

(٦) انظر سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، «معجم الأساطير اليونانية»، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٢، ص. ١٨٤.

صلة الماء بالقداسة مغرقة إذن في القدم وتنتح جذورها من حضارات سادت ثم بادت، لكنّها ماثلة بمعتقداتها ومفاهيمها وعاداتها في الذاكرة الجمعية. الجانب اللغوي لهذا التجذّر شرحه الأستاذ الدكتور (محمد محفّل) في كتابه « دمشق الأسطورة والتاريخ» في معرض حديثه عن الصلة بين جذر (ق د س) وجذر (ق د ش) في العربية والكنعانية القديمة والوسطى، وفي الآرامية بلهجاتها المختلفة مع تبديل السين شيناً وبالعكس. ففي الكنعانية والآرامية، بحسب الدكتور (محفّل)، «قـدُسَ» معناها «طَهُرَ» و«تبارك»، ومنها القدس والقدّيس والقداسة والقَدوس (على وزن فعول) أو القُدوس (بضم الفاء) أي المبالِغ في الطُهْر.

وكثيرة هي أسماء الأشياء والأماكن المشتقة من هذا الجذر والمرتبطة بمفهوم القداسة المتّصل غالباً بالماء. ومنها:القـدُس والقَـدَس أي القدح الصغير؛ والقادِس أي السفينة الكبيرة؛ والقُدْس وهو الحجر الذي يرمى في البئر ليُعلمَ هل ماؤها كثيرٌ أم قليل؛ والقادوس وهو إناء يُخرَجُ به الماء من السواقي والآبار، والقُدّاس حجر يُطرح في حوض الإبل يُقدّر عليه الماء الذي يقتسِمونه بينهم.

كما نجد الجذر نفسه في كثير من أسماء الأماكن الواقعةِ كلِّها عند مصدرٍ مائي أو على مجرى مائي، ما يسبِغ عليها صفة القداسة:

فمدينة قُدْسَيّا، وتل قادِش، ووادي قاديش أو الوادي المقدّس ونهر قاديشا، والقادسية، وفي إسبانية، كاديش Cadiz مدينة على المحيط الأطلسي أسسها الكنعانيون نحو ١١٠٠ ق.م... كلُّ هذا على سبيل المثال لا الحصر.

* * *

تحمِل صورة الماء في ثقافة الشعوب تضادًّا ظاهريًّا يدفع بمدلولاتها إلى طرفي نقيض. ففي حين يظهر الماء رمزاً للحياة والطهر والتجدد، يتبدى أحياناً أخرى رمزاً للضياع والفناء، مجسّداً مفهومين متناقضين في آن معاً: الخير، والشر؛ والثواب والعقاب.

ففي حين يُثاب المستقيمون بماء غدِق في الحياة الدنيا، وتجري الأنهار العذبة في جنات الخلد تُنبِتُ فيها طيب الثمرات، يُعاقَب الضالّون على اعوجاجهم وغيِّهم بانحباس الغيث والقحط، ويؤخذون بطوفان جارف وموت محقق يأتي عليهم ويذهب بزرعهم وضرعهم.

هذا التضاد في الأدوار اختزلته الأسطورة البابلية إذ امتزج الماء الحلو بالماء المر فكان العالم السفلي. وفي الديانات السماوية علاقة التضاد واضحة في مفهوم الماء: فبالطوفان عقاب على الآثام، وبالماء الطاهر المقدّس تطهّر من الدنس. والمزاوجة في الماء بين الخير والشرّ شديدة الوضوح مفهوماً ولغة في حديث الإمام (علي) رضي الله عنه: «خيرُ بئر في الأرض زمزم، وشرُّ بئر في الأرض بَرَهوت»(٧).

* * *

وتحفُل آداب الشعوب وذاكرتها بالأساطير والقصص والحكايات التي تتمحور حول الماء مصدرِ الإعجاب والرهبة في آن معاً، أساطيرُ وقصصٌ تراكمت وهاجرت وتزاوجت لتنتج ثمرة يانعة لفكر إنساني متكامل، يغني كلُّ جزء فيه اللوحةَ الكبيرة ويكمّلُها ويزيد في نضجها وروعتها، ويتيح تفسير الكثير من الأفكارِ والمعتقدات والطقوس والعادات، بِرَدِّها إلى

(٧) الشكر لأخي الدكتور ممدوح خسارة الذي أفادني بهذا القول.

أصولها ومنبتها. ففي الأساطير الكنعانية، كان (بعل) ذا رهبة وسطوة، فإذا غضِبْ، ضربَ الأرضَ بالطوفان، أو أنزل القحطَ فكان الهلاك. وأسوار مدينة أرواد تشهد على محاولة الكنعانيين درء خطر الطبيعة عنهم، لاسيّما درء خطر «يم»، إله البحر، وأمواجه العاتية.

أمّا (جلجامش) السومري، فقد عبَرَ الأنهار وقطع البحار المترامية إلى حيث تشرق الشمس، ليعمِّر ما خرّبه الطوفان.

ومن أساطير الشرق حول المياه ما يورده (النُوَيري) في كتابه «نهايةُ الإرَب في فنون الأدب» إذ يقول فيما يقول: «إن بأرض الهند مكاناً يعرف بعقبة عورك، فيه عين ماء لا تقبل نجساً ولا قذراً. فإن ألقي فيها شيء من ذلك، هبَّتِ الريح وكثر الرعد و المطر. فلا تزال كذلك إلى أن يَخرُجَ منها ما طُرِح فيها».

* * *

وكما ابتهل إنسان الحضارات القديمة لآلهته أن تغيثَه بخيراتها، توسّل إليها أن تدرأ عنه غضبها، فهي مصدرُ الخير والجود حيناً، والغضبِ والبطش أحياناً، تضرِب بالصواعق وتُغرِقُ بالطوفان. من هنا، كانت الصلة اللغوية وثيقة بين الماء والدموع، والمطر والبكاء، وهو أمر لا يقتصر على لغتنا العربية وحدَها، ففي اللغات الأخرى أيضاً الكثير من الأسماء والصفات والأفعال التي تصلح للمطر والدمع على حدٍّ سواء. وفي الأساطير المكسيكية بحسب د. (أنور حاتم) في كتابه «أساطير المكسيك»، جعَل (الأستيك) للمطر إلاهاً أسموه (تلالوك)، وكانوا كلما حجب المطر عنهم استدروا عطفه بتقديم أطفالهم قرابين له؛ فيتأثر الإله ويبكي، فتتكاثف السحب ويتجمّع الغَمام، وتجود السماء بماء «يشفي العليل ويروي التربة العطشى».

ولعلّ في هذا أصلَ طقوس الاستسقاء التي نجدها عند شعوب الأرض كافة. فإذا انقطع المطر وأَضرَم القحطُ النار في جوف الأرض فضربها الجدب، توجّه الإنسان إلى مُنْزِل المطر يستسقيه ليُطفئ حرّ القلوب من معين السماء، ويغدِق على الأرض من نمير الرحمة.

ولصلاة الاستسقاء جذور في المناطق التي لا يتوفر فيها الماء بكثرة كبلاد الشام والجزيرة العربية وشمالي إفريقية، وقد وجدت نقوش في أوغاريت لإلاهةٍ ترفع يديها إلى السماء تطلب الماء، في حين لا يوجد مثل ذلك في العراق ومصر بسبب توفر المياه ووجود الأنهار.

ولم يَشِذَّ عربُ الجزيرة قبل الإسلام عن سواهم من شعوب الأرض في ممارسة طقس الاستمطار، فقد كان من عادتهم أن يربِطوا القش في أذناب البقر، ويُضرموا النار فيه، ويطلقوها في الجبال. ويقول (البكر) في كتابه[٨]: «وكانت النار تلسعُها (أي تلسع البقر) فتلوّح بذيولها، فتصبحُ أشبه بالبرق الذي يلوح بين الغيوم، عَلَّها تحرِّض إله المطر كي يُرسِلَ غيومَه، ويضرِبَها بسوطه الناري، فتُنزِلَ مطراً».

وارتباط الماء بمعجزات الاستسقاء والاستشفاء يجد له صدى في الديانات السماوية، فها هو (موسى) عليه السلام يستسقي لقومه بني إسرائيل إذ تذمّروا من قلّة الماء، (فكلّم بأمر الله الصخرة أخرجت لهم ماء ليشربوا). ويروى أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في دعاء الاستسقاء لغيثٍ مخصِبٍ نافعٍ غيرِ ضار، سُقيا رحمة لا سقيا عذاب.

* * *

(٨) انظر المرجع نفسه، ص١٠١.

وكما في الحضارات القديمة، تبوأ الماء في الديانات السماوية الثلاث المكانة الرفيعة التي يستحق، فعُدَّ أحدَ أسرار الحياة، وهبةَ الله ونعمتَه، ووسيلةَ الإنسان للتطهّر والاستشفاء والاحتماء، ورمزَ التجدد.

وتتجلى العلاقة التلازمية بين الماء والحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. الماء إذن أصل الحياة. وهذا ما أثبتته الدراسات الأحيائية. وقد لفت الزميل الدكتور (هاني رزق) نظري إلى أن الهواء، على أهميته، ليس بأهمية الماء. والدليل على ذلك وجودُ حياة بلا هواء ولا أكسجين حرّ، كما هو حال كائنات حية لا هوائية كالجراثيم، على حين أنه لا حياةَ بلا ماء.

تبوّأ الماء في التنزيل الحكيم مكانة رفيعة، إذ وردت لفظة الماء وحدها تسعاً وخمسين مرة، كما وردت ومشتقّاتها ما مجموعه ثلاثاً وستين مرة في أربع وأربعين سورةٍ قرآنية. أمّا كلمة المطر ومشتقاتها فوردت خمس عشرة مرة.

واللغة العربية واحدة من أكثر اللغات التي رسَّخت بفصاحة بالغة ذاك الرابطَ الوثيق بين الماء والحياة، بين السبب والنتيجة. فنجد الماء والخِصب والحياة مختزلة في كلمة واحدة هي «**الحيا**» (بالألف الممدودة)؛ وفي الحديث الشريف: «جاءكم الحيا» (لسان العرب) ولفظة «**الحيا**» تشترك في جذرها مع «الحياة»، وفي لسان العرب، هي تعني: «ماءَ الغيم» و«الخِصبَ» و«العشبَ النامي بعيد هذا الهطول»، أي إنّ سبب الحياة ونتيجتها اجتمع في لفظة واحدة. وكذلك الأمر في كلمة **الغَيثُ** وهو اسم للمطر كلِّه، ثم أصبح يدل على المطر والكلأ. ومن أسماء المطر ذات الدلالة المركّبة أيضاً الرِّزْقُ: لأن فيه الرزقَ وإحياءَ الأرض، و**السماء** وتعني المطرَ والسحاب

والعُشب في آن معاً. أمّا كلمة «**الرحمة**» التي هي من أسماء المطر، فتجمع في لفظ واحد بين الشيء وسببِه، لأن المطر يُنزَّلُ من السماء برحمة الله.

* * *

في لغات العرب مئات الألفاظ الدالة على الماء بحسب كميته وموقعه وصفاته: **فالسَّحَل** و**السَّمِل** هو الماء القليل أو ما تبقى منه. و**الطَّغْم** و**الغمْر** هو الماء الكثير، **السَّيْع** و**السّيْح** و**الغَيْل**: هو الماء الجاري على وجه الأرض، فإذا كان جارياً غزيراً عذباً كان **مَعِيْناً**، وأمّا إذا كان قليلاً فهو **الوجْه** و**الشَول**. و**الضَّحْل** هو الماء القليل على الأرض لا عمْق له. فإن كان قليلاً ليس له مدد فهو **الثَّمْد**. و**القّشْ** ما جَمَد من الماء على كلِّ شيء. فإذا نزل جامداً من السماء فهو **بَرَد**. و**الثَّغْب** مسيل الماء في الوادي. و**الثَّغْب** و**الثَّغْبب**: الماء المستنقع في حفرة، فإذا سال بين البئر والحوض فهو **الغَرْب**، وإذا اجتمع في الجبل فهو **الوَجْد**. وإذا تغلغل بين الأشجار فهو **الغَلَل**. و**الجَواز** هو الماء الذي يُسقاه الزرع. فإذا توضّع تحت الرمل فهو **الكَرّ** و**الحِسْي**. والماء المالح هو **المأج**، والصافي هو **الرَّوق**.

كما حفِلت لغات العرب بالألفاظ الدّالة على المطر بحسب مواسمه وأوقات هطوله، وشدّتِه وحجومِه وسرعتِه وتواترِه وتتابعه ومكانِ نزوله ومدة هطوله وأثره في الأرض.

فمن أسماء المطر عموماً:

الحيا والرِّزق والغيْث و**القَطْرُ** و**القَسْم والوَدْقُ، والصَّوْبُ والمَصْد** و**الندى والسَّبَل والذِّهَابُ والرَّبَابُ والمُزنة** (ومطرها أقوى من الرباب) – و**السَّماءُ** وفي القران الكريم: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١].

ومن أسماء المطر الشديد بأنواعه: **الصَّـيِّبُ والصَّـوْب والهَـكّ والـوذْق والغَفّ والعُبَابُ والعَذْرُ والدّجْنُ والغَدقُ والجَـوْد** أي المطـر الغزيـر الكثيـر العام في كل زمان وهو فوق مطر **الدِّيمة** وهو الذي يـروي كـل شـيء. ومـن أسماء المطر الكثير أيضاً **الجِلبَاب، والهَفَنُ**: وهو المطـر الشـديد، و**الشـقيقة** هي المطر الوابِلُ المُتَّسعُ. أمّا **الفَتْح** فهو المطـر الواسـع الغزيـر، فـإذا كانـت شدّتُه مصحوبة بالصوت سُمّي **البُعاقُ**. و**البَغَرُ** هو الدفعة الشديدة من المطر، فإذا دام أياماً كان **أثجم**، وإذا أقلع كان **أنجم**، وإذا دام وعظُم فهـو **الهَضْـبَةُ أو الأُهْضُوبَةُ**، وإذا استرسل فهو **المُرْثَعِنّ**، وإذا تكرر فهو **الرَّجْعُ**. والمطـر العـام هو **الجَدَا**، والمتتابع هو **الهطْل و الهَتْن** (وعين هَتون الدمع: أي عـين تصـبّ الدمع). والحثيث المتدارَك هو **السَّبْط والسَّحُّ والحَتْفَل**. والسريع انهِلالُه هـو **الهَفْت**. فإذا كان لرعده صوت فهو **الهـزيم**، وإذا كـان غزيـراً ذا صـوت عـال فهو **الهَطِفُ**، وإذا كان شديد الانصباب جدًّا فهو **مِثَجٌّ وثَجّـاجٌ و ثَجِـيجٌ**. وإذا حصل منه السَّيل فهو **الأتيُّ**. وإذا جاء بعد احتِباسٍ فهو **حَقِبَ**. و**المُمَانِح** هـو المطر الذي لا ينقطع، فإذا دام مع سـكون لا رعـد فيـه ولا بـرق أقلهـا ثلـث النهار وثلث الليل فهو **الدِّيمة**. والمطر المتتابع هو **الدُّرة أو الدَّرءُ والمِـدرَارُ**. فإذا كان متتابعاً يفصل بين سكون أقلّه ساعة وأكثره يوم وليلة فهو **الرِّثَانُ**.

وللمطر الخفيف الضعيف عند العرب أسماء يصعب إحصـاؤها، منهـا: **الخَطْرَةُ والدَّسَّةُ، والمَغْرَةُ والفرَاشُ والهَمِيمَةُ والشـجذة والشـؤبوب والسـبل البغْش والبُغشة، والوَلَثُ والثَّردُ والرَّمَـلُ والـنَّحّ والـنّضّ والنَّضِيضَـةُ والـوَدْق والضَّرْب والخَشّ والغَفْق والطّـشّ والـرَّشُّ والـدَّثُ والطّـلُّ والدثـة والهَدْنَـةُ والرِّك والرَّذاذُ والقِطقِط** وهو أصغر المطر.

وقد حاولت إيراده من الضعيف القليل إلى الأضعف الأصغر.

وأمَّا **الدهْن** فهو المطر الذي قدْرُ ما يَبُلُّ الأرض، فإذا كان واسعاً في الأرض فهو **الخِبْطَةُ**، وإذا كان ضعيفاً دائماً لا رعد فيه فهو **الرَّهم والرِّهْمَةُ والرَّهْو**.

كما أن العرب صنّفت المطر بحسَب أزمنته ومواسمه، **فالأحداث** أول أمطار السنة، و**الثَّرَوِي** أول أمطار الموسم، و**الفتْح** أول المطر، و**البَدرِي**: ما كان قبل الشتاء، فإذا نزل في أول الشتاء سُمّيَ **الرَّصْدُ والرَّصَدُ والرّصْدة**، و**البَسْر** هو المطر أولَّ ما ينزل من السّحاب.

ومن أمطار الأزمنة **الخريفُ والرَّبِيعُ والدَّفَئِيّ والصَّيِّفُ**. ومن أمطار الصيف إذا اشتدّ الحرّ **الحَمِيمُ والرَّمَضُ**.

إن هذا الاستعراض السريع لبعض أسماء وصفات الماء والمطر في العربية دليل إضافي على غنى هذه اللغة العظيمة ودقة ألفاظها، وتأكيدٌ لأهمية العودة إلى هذا المكنز الهائل لإحياء ما يمكن أن يرفد المعجم العربي المعاصر من ألفاظ تراثية تستسيغها الذائقة، وصولاً إلى دقة العبارة وجمال البيان.

* * *

وبعد، فقد كان لا بد عند الحديث عن الماء وصلته اللصيقة بالثقافة أن نمتح من عمق جذور التاريخ الإنساني، المتشعبة الفروع، المتنوعة الألوان، وهدفنا أن نبرز وحدة الفكر الإنساني، وتشارك البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم عبر التاريخ في أفنان الأحاسيس والحاجات، فقد تغلغل الماء في الذاكرة الجمعية لشعوب الأرض، فقرّب بينها في المفاهيم والمعتقدات والطقوس والعادات التي توارثتها، وتناقلتها، تثبيتاً للتواصل الإنساني

والتكامل المعرفي، وقرينة على وحدة الفكر الإنساني وتكامله، فلا يحول دون هذا التكامل وتلك الوحدة أيّ انتماء عرقي أو ديني أو مذهبي، وأي تباعد زمني أو مكاني.

وإذا كان للماء تلك المكانة الرفيعة في حياة البشر وثقافة الشعوب، فالأولى أن نَعُدَّه الثروة العظمى في حياتنا، فنحسنَ استثمار مصادره ونحافظ عليه من الهدر والتلوّث محافظتنا على وجودنا وأوطاننا، عملاً بالقول المأثور: «لا تسرف في الماء ولو كنت على نهرٍ جارٍ».

* * *

المصادر والمراجع

- أساطير مكسيكية، أنور حاتم، سلسلة الأدب الغربي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مكتبة أطلس، دمشق ١٩٦٢.
- حكايا وأساطير من عالم الشرق القديم، هايتز كرا يسيك، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣.
- دمشق الأسطورة والتاريخ، محمد محفّل، مطبوعات دمشق عاصمة الثقافة، دمشق ٢٠٠٩.
- الروح الأخضر، محمود مفلح البكر، دار الحضارة الجديدة، بيروت ١٩٩٢.
- الماء وما ورد في شربه من الآداب، محمد شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، جمادى الآخرة ١٤٠٥ للهجرة، الموافق آذار ١٩٨٥.

- معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب، ممدوح خسارة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠٠٧.
- مغامرة العقل الأولى، فراس السوّاح، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٨٠.
- المندائية، العراق بردانه البيض، نعيم عبد مهلهل، منشورات بغداد عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، ٢٠١٣.

فهرس المصادر: المواقع الإلكترونية:

صلاح مهدي جابر، «معجم ألفاظ المطر».

http://www.ahlulbaitonline.com/karbala/New/html/research/research.php?ID=105#sthash.APtz5IZP.dpuf